

الفكرة الدينية ودورها في بناء المجتمعات

من خلال القصة القرآنية

أ/ طيب بن الصالح

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

الملخص:

تعد الفكرة الدينية من العوامل المهمة في بناء الحضارات والمجتمعات وتطورها وازدهارها ورفقيها، وما من حضارة إلا وتحمل بذور فكرتها الدينية، على غرار الحضارة المصرية والإغريقية والحضارة الإسلامية، وذلك لأن هذه الفكرة هي الموحدة للمجتمع والمحددة لأهدافه واهتماماته والضابط لقيمه ومبادئه، وهذا ما أكدته القصة القرآنية في سياق عرضها لأخبار المجتمعات الإنسانية القديمة، كمجتمع عاد وثمود، وقوم داوود وسليمان.

Résumé: L'idée religieuse est parmi les facteurs importants dans la construction de civilisations et des sociétés et participe dans leur développement leur prospérité et leur progrès. Les civilisations dans leur diversité transportent les graines de ces idées religieuses comme la civilisation égyptienne et grecque et la civilisation islamique.

Car c'est cette idée seule qui veille l'unification de la société et la fixation de ces objectifs et ces intérêts ainsi l'idée religieuse met en ordre les principes et les valeurs. Tout ça est évoqué par le récit coranique par la récitation des histoires des vieilles sociétés.

كثير الحديث وتعددت الآراء عن الحضارة ونشأتها والعناصر الفاعلة في نشأتها، وقد وُجدت العديد من الآراء التي حاولت التنظير للحضارة من زوايا مختلفة، فمنهم من رأى أن الحضارة لا تتبعث إلا بالعصبية وهي الركن الأساسي والدافع لها، والرأي الثاني قال إنها لا توجد إلا حيثما وُجد التحدي لقوة من القوى، ورأي آخر أرجعها إلى العامل الاقتصادي..

كما أن هناك رأياً يرى أن لكل عمل حضاري ثلاثة عناصر هي التراب والوقت والإنسان الذي يمثل الحجر الأساس لكل بناء حضاري، والعنصر الكفيل بالربط بين هذه العناصر الثلاثة هي الفكرة، سواء كانت دينية أو غير دينية، إلا أن صاحب هذا الرأي المفكر الجزائري مالك بن نبي يرى أن الفكرة الدينية هي التي لها الدور الفعّال في الربط بين هذه العناصر لبناء الحضارة.

وفي هذا البحث سنحاول الوقوف عند تأثير الفكرة الدينية في بناء المجتمعات منذ أقدم العصور إلى غاية مجيء الحضارة القرآنية الإنسانية، وذلك بالإشارة إلى تأثيرها في بناء المجتمعات القديمة والحديثة، من خلال الوقوف عند تأثيرها في بناء المجتمع المصري القديم، ثم تجلياتها في المجتمع اليوناني الإغريقي، لنقف في الأخير عند دورها في بناء المجتمع من منظور القصص القرآني.

ولذلك كانت الإشكالية التي عالجتها: ما مفهوم الفكرة الدينية؟ وما تأثيرها في بناء المجتمعات؟ وكيف تجلت في القصص القرآني؟

ولمعالجة هذه الإشكالية قسمتُ هذا البحث إلى ثلاثة مباحث، الأول عرفتُ فيه الفكرة الدينية، والثاني تحدثتُ فيه عن الفكرة الدينية والحضارة، أما الثالث فخصصته للفكرة الدينية والقصص القرآني.

المبحث الأول: تعريف الفكرة الدينية

يعد تعريف الدين في اللغة من الألفاظ التي تعددت معانيها، فالدين حسب علماء اللغة هو الطاعة. وقد دنته ودنت له أي أطعته... والجمع الأديان،

يقال: دانبكذا ديانة. وتقول العرب أيضا: دينت الرجل تديينا إذا وكلته إلى دينه. والدين مثلا للإسلام، وقد دنت به.

والدين العادة والشأن، تقول العرب: مازال ذلك ديني وديديني أي عادتي¹. ويذكر المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية أنّ الدين لغة "بمعنى العادة، ويطلق بمعنى أوسع على الحق والباطل، ويشمل أصول الشرائع وفروعها، لأنه عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المعمود إلى الخير بالذات"². هذه الشرائع الإلهية سيقف للإنسان العاقل دعوة له إلى الحق واجتتاب الباطل والضلال حتى يصل إلى سُبُل النجاة وتحقيق الخير والسعادة.

وتجدر الإشارة هنا إلى الفرق بين الدين والملة والمذهب، "فالدين منسوب إلى الله، والملة إلى الرسول، والمذهب إلى المجتهد، وأما الشريعة فتضاف إلى الله والنبي والأمة وهي من حيث أنها يُطاع بها تسمى ديناً، ومن حيث أنها يُجتمع عليها تسمى ملة"³، ومن ثم فإن الدين أشمل وأوسع مفهوماً من المذهب لاشتماله "على اعتقاد الإنسان حول الخالق والمخلوقات وأمور الغيب والآخرة، وأما المذهب فيكون في بعض هذه الأمور أو مسائل منها، وقد يكون في أمور الحياة فقط"⁴. وذلك إن كل ما جاء من عند الخالق من أمور عن الغيب أو الكون بما فيه والحياة فهو دين، أما ما يكون ببذل من مجهود من الإنسان داخل هذا الدين دون

¹ - جمال الدين ابن منظور ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، م 02، باب الدال. ص1469.

² - هدى بوفضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أروند توينبي - المسيحية أمودجاً، رسالة مقدمة لنيل شهادة مذكرة الماجستير في الفلسفة، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، 2007-2008م. ص57

³ - المرجع نفسه. ص57.

⁴ - المرجع نفسه. ص57.

خروج عن الأصول والثواب فهو مذهب، ولذلك نجد بعض الاختلافات البسيطة حول بعض الأحكام التي لم يرد فيها نص قطعي وهو راجع إلى تعدد المذاهب والدين واحد.

أما اصطلاحاً، فيعرف الدين على أنه: "مجموعة متماسكة من العقائد والفرائض والآمال المتعلقة بالأشياء المحرمة، وهي محكمة الربط فيما بينها تضم في مجتمع خلقي واحد كل الذين يتصلون بها ويسلمون بنفس الأمر"¹.

الدين بما يشمل من عقائد وواجبات ونواهي وقوانين وضوابط تجعل من المجتمع كياناً متماسكاً ومتحداً حول فكرة واحدة يؤمن بها، تدفع أفرادها للدفاع عنها، والسير بهم نحو البناء والتشييد الحضاري ومناقسة الأمم الأخرى، وهو ما جسده المسلمون لما اندفعوا بكل عزيمة ودون خوف للدفاع عن العقيدة الإسلامية ونشرها متمسكين بالإيمان بالله وبالقيم والمبادئ التي دعا إليها الإسلام، وأبدعوا في مختلف العلوم والميادين والمجالات وسيروا الركاب طلباً للعلم، وشيدوا مختلف أنواع العمارات والمدن.

مميزات الأديان: تتميز الأديان عموماً بمميزات أهمها:

- الإيمان بوجود إله خالق للكون والعالم، له القدرة على التحكم في المخلوقات.
- وجود أعمال تعبدية يُقصد بها تجليل المقدّس من ذات إلهية وغيرها من الأشياء التي تتصف بالقدسية، فقد عُبدت مختلف مظاهر الطبيعة في الحضارة المصرية القديمة.

¹ - قاسم حبيب جابر، الإسلام بين البداوة والحضارة. دراسة حضارة الإسلام والانسانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1423_2003. ص13.

- يمثل الدين قانوناً أخلاقياً أو شريعة تشمل الأخلاق والأحكام التي يجب اتباعها من قبل الناس، ويعتقد المؤمنون أنها آتية من الله الخالق لتنظيم شؤون العباد.

- الصلاة وهي الشكل الأساسي للاتصال بالخالق وإظهار التبجيل والخضوع.

- رؤية كونية تشرح كيفية خلق العالم وتركيب السماوات والأرض وآلية الثواب والعقاب، أي كيف ينظم الله شؤون العالم.

- شريعة أو مبادئ شرعية لتنظيم حياة المؤمن وفقاً للرؤية الكونية التي يقدمها من الدين.¹

هذه المميزات لا تخص ديناً على حساب آخر، إذ إن الدين والمعتقد به من طرف العبد هو المقدس لديه، ويمثل له سلطة عليا واجبة الاحترام والتبجيل لما تقدمه من خدمة لهذا المجتمع، ولذلك تجد الفرد يلجأ إلى الصلاة بغية التقرب من المعبود وابتغاء مرضاته ورجاء ثوابه وخوف عقابه.

ويتمثل دور الدين في شد أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض نحو حياة أفضل ملؤها التعاون والمحبة والأخلاق الفاضلة، ويدفع بهم إلى الإبداع العلمي في مختلف المجالات، كما له الدور في ضبط جميع غرائز الإنسان وميولاته وأهوائه وسلوكياته، وهو القبلة التي يأوي إليها أفراد المجتمع كلهم، والحاكم الذي يحتكمون إليه في وضع القيم وتصنيفها، وتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع وضبطها.

¹ - مصطفى حسبيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط 01، 2009. ص 223-224.

المبحث الثاني: الفكرة الدينية والحضارة:

يؤكد الباحثون والمنظرون للحضارة أمثال ابن نبي أن الحضارة لا تتبع في أمة من الأمم إلا بالعقيدة الدينية، وإذا أردنا البحث في حضارة من الحضارات وجب البحث عن أصلها الديني الباعث لها، المحدد لانتمائها وهو ما نجده في الحضارة البوذية والبراهمية اللتين تحملان بذور العقيدة البوذية والبراهمية¹، والحضارة الإسلامية التي اصطبغت بصبغة العقيدة الإسلامية، عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى البعيدة عن كل أنواع الشرك، وكانت السمة البارزة في جميع نشاطات المسلمين وأعمالهم الحضارية.

وذلك لأن الدين هو الدافع والموجه للحضارة مهما كان نوعها، والمحدد لاهتماماتها وطموحاتها، والقادر على حل مشكلاتها، فهو بمثابة المرجعية التي يرجع إليها جميع أفراد المجتمع، مما يجعلهم المجتمع متوحدين متحدين، باعتباره الرابطة العليا التي تلتقي عندها كل نوازع الأفراد، فتشدهم إليها بقوة وتوحد تطلعاتهم وطموحاتهم وتنظم سلوكياتهم، مما يساهم في تأمين وحدة صمودهم ووقوفهم أمام التحديات المختلفة التي تواجه هذا المجتمع خلال مسيرته للحاق بالركب الحضاري الإنساني، ولن يكون له هذا الدور إلا إذا تمكن في المجتمع وبلغ منه مبلغ الروح من الجسد²، فدونه لا يستقيم هذا المجتمع ولا تقوم له قائمة على الصرح الإنساني، وإذا خلت الحياة من الدين كانت تعاسة ومرارة، وساد فيها النزاع والتخاصم، وانعدمت الوحدة والتآلف وعمّ اتباع الهوى والنفس، وتغلغل إلى

¹ - مالك ابن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر، سورية- دمشق، 1406هـ-1986م. ص 56.

² - سليمان الخطيب، أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر. ص 69.

النفس العديد من المؤثرات السلبية على الإنسان والآفات النفسية كاليأس والقنوط وعمّت الفرقة والتشتت في المجتمع، واختلف المصير والهدف.

يضاف إلى ذلك فإن الدين هو الذي يعد الإنسان أحسن إعداد، فيمنحه التوازن بين قواه المادية والروحية، ويوجه سلوكه نحو الخير وتحقيق المنافع له ولغيره، ويجعل جميع البشر متساوين بلا فروق بينهم إلا بمقياس التنافس في الخير والتقرب إلى الله جل وعلا، إضافة إلى نشر الأمن والسكينة والاستقرار، وبسط قيم الأخوة والمودة والرحمة والعدل.¹

كما يمثل المرجعية التي يلتفت حولها أبناء المجتمع ويلجأون إليها عند الحاجة، وذلك لما للمرجعية من تأثير في النفوس كيفما كان نوع هذه المرجعية، فقد تكون بشرية ككبير أو شيخ القبيلة كما كان في المجتمعات العربية قبل الإسلام، فلا يرد له قرار، والخروج عليه معصية في نظام القبيلة، توجب إنزال العقوبة بمن فعل ذلك، والكل يعود إليه عند الحاجة وقراره نافذ، وكيف إذا كانت المرجعية العليا دينية روحية وخاصة إذا كانت نازلة من السماء من خالق البشرية العالم بما ينفعها وما يضرها أكثر من البشر أنفسهم؟

ومن المفكرين الذين أشادوا بدور الفكرة الدينية في بناء المجتمعات العلامة ابن خلدون، الذي رأى أن للدين دوراً في إحكام قوة العصبية التي يعتبرها أهم عامل في بناء الدول وقوتها، وذلك لما لهذه الفكرة من دور في تهذيب العصبية من خلال الذميمة الموجودة فيها مثل التحاسد والتباغض والتنافس، وتجعل أفراد

¹ - عبد اللطيف بن سعيد الغامدي، حقوق الإنسان في الإسلام، مركز الدراسات والبحوث، الرياض، ط1، 1421هـ_2000م. ص92.

هذه العصبية يصُوبون إلى هدف واحد يوحدهم، فلا يقف أمامهم شيء لأن الوجهة والهدف واحد¹، فتذوب الشحاء والأثانية وحب الرياسة وتغرق في بحر هذه الفكرة. كما نجد "توينبي" يؤكد على دور الفكرة الدينية في حياة الأمم بل وأعلى من شأنها، حيث رأى "أن وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية، فالعقائد الدينية هي التي تسيّرالتاريخ، وإذا كان هناك مستقبل لحضارة من الحضارات فذلك في حدود الأديان وبسبب منها"². وفي هذا إعلاء من شأن الدين وجعله صانعاً لمستقبل الحضارات ولا مستقبل لها بدونه.

فكل من هذين الرأيين يؤكد دور العقيدة الدينية في حياة الأمم مهما كان نوعها، وأن للدين تجلٍ في حياتها وتحديد مستقبلها، فهو بمثابة العاصم لها من الزلل والدافع والمحفز لها لتحدي الصعاب وتحمل المشاق، وروح هذه الحضارة وعلى أساسه تُسمى، والمميز لها عن غيرها من الحضارات الأخرى. ولإبراز تجليات الفكرة الدينية وتأثيراتها على حياة الأمم نلقي نظرة على بعض الحضارات القديمة ونحاول الوقوف على مدى تجلي هذه الفكرة فيها ودورها في بناء هذا المجتمع وكيف انعكست على منجزاتهم المادية والفكرية.

- الحضارة المصرية (3150 ق م - 50 ق م): اصطبغت حياة المصريين القدامى في مختلف جوانبها الفنية والسياسية والأخلاقية والاقتصادية بالصبغة الدينية، فقد كان همّ المصريين إرضاء آلهتهم وتحقيق إرادتها بتأدية الفروض، وتجنب المحرمات في المعابد، وتقديم القرابين للآلهة، حتى أنهم كانوا يضعون موائد في الحقول ليضع فيها الفلاحون القرابين³.

¹ - سليمان الخطيب، أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام. ص 76.

² - المرجع نفسه. ص 77.

³ - سليمان الخطيب، أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام. ص 72 - 71.

وقد تميزت هذه الحياة بالشرك وعبادة الطبيعة بمختلف ظواهرها، والاعتقاد بوجود الأرواح في الأشياء، مما أسهم في تعدد معبوداتهم وتقديس أشخاص وعبادتهم وتألبيهم، فقد عُبِدت الأحجار والينابيع والجبال والنبات، والمخلوقات الحية والمظاهر الطبيعية كالسما والأرض والبحار والرياح والشمس والقمر.¹

وهذا ما جعل هذه الحياة تتميز بجملة من الخصائص منها:

- تعدد الآلهة حيث كان لكل إقليم إلهه المعبود.
- البعث والخلود: حيث اعتقد المصريون أن الروح بعد مفارقتها لصاحبها تصعد إلى السماء، وإذا ما ظل الجسم سليماً بعد دفنه عادت إليه روحه، فقد اعتقدوا بوجود حياة أخرى بعد الموت، ولذلك حفظوا الجثث بعد تحنيطها ووضعها في قبور حصينة وهو ما تجسد في الأهرامات.
- أما إيمانهم بالخلود فقد دفعهم إلى دفن موتاهم في الصحاري تحت أشعة الشمس الحارقة، لثجف وتحفظ من التلف، ووضعهم مع الميت ما يحتاج إليه من أواني ليستعين بها في حياة الخلود.
- الاعتقاد بالحياة بعد الموت: ويظهر في إيمان المصريين بالحساب والعقاب من خلال محاكمة الروح بعد موتها بمجازاتها على أعمالها إن خير فخير وإن شر فشر.²
- كانت للحياة الدينية الأثر الأكبر في حياة المصريين، خاصة إيمانهم بوجود حياتين مؤقتة وأبدية وبينهما موت مؤقت، مما أسهم في وجود العديد من

¹ - محمود شاكر، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ج 01، ط 01، 2003. ص 205.

² - عباس عباس، الموسوعة الحضارية_العصر الحجري، الحضارة المصرية الفرعونية، الحضارة السومارية، الأكاديون، البابليون، دار البدر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر. ص 42.

الإنجازات والمظاهر التي تؤرخ لهذه المرحلة من التاريخ وطبيعة الحياة فيها وطريقة التفكير مما تجسد في العديد من الفنون والعمارات والآداب والعلوم، وهي إبداعات بُذل فيها كل الفكر من أجل أن تكون حياته الثانية الأبدية كاملة غير منقوصة.¹ وهو ما نراه في الأهرامات المصرية المتعددة الأسماء والأشكال.

أما إذا عرجنا على الحضارة اليونانية الإغريقية (800ق م - 600م) التي عُرفت بتعدد الآلهة وكثرتها، واتصافها بصفات البشر كالتزاوج والحب والكره والصراع فيما بينها، وشموليته هذه الآلهة لمختلف ظواهر الحياة، فكان هناك إله للحرب، وآخر للخصب والإنجاب، وإله للبحار وإله للهواء وغيرها من الآلهة.

أما علاقتها بالحياة فقد كان لها تأثير كبير خاصة من الناحية الاجتماعية، فقد تمّ ربط وبناء علاقة وثيقة بين الدين والأعياد والألعاب الأولمبية التي كانت تنظم بدولة اليبس، كل أربع سنوات بدءاً من سنة 776 ق م، وعُدت هذه الألعاب أحد مقومات الحضارة الإغريقية وتكريساً وتقديساً للإله زيوس كبير آله الإغريق²

إضافة إلى ذلك فقد تم خلع الكرامة على أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها كالمولد والزواج والأسرة والدولة، وتقويتها من الشهوات، كما مثلت عبادة الموتى وتكريمهم وسيلة لربط الأجيال المتعاقبة برباط الواجبات، كما أسهم الدين في تثبيت الوطنية وتحقيقها من خلال ربط كل الأنشطة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتعليمية بالجانب الديني.³

وبذلك نرى أن تأثير الدين بارز في الحضارتين العريقتين الضاربتين في الزمن، ظاهر للعيان خاصة في التفكير والبناء والتشييد ومختلف الأعمال، حتى

¹ - مهات درويش، الفكر الديني في مصر القديمة، مكتبة الأسكندرية، ص 04.

² - محمود شاكر، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم، ج 01، ص 299 - 301.

³ - ول ديورانت، ملخص قصة الحضارة، مؤسسة الرسالة، ط 01، 1423هـ - 2002م، ص 325.

أن له علاقة بجوانب الحياة المختلفة كالسياسة والاقتصاد وهو المحدد والمنظم للعلاقات الاجتماعية والأسرية، وهو المسير للحياه والضابط لها. أما إذا ولجنا إلى الحضارة العربية الإسلامية فإننا نجد أثر الفكرة الدينية أكثر بروزاً، ففكرة التوحيد الخالص لله تعالى دون سواه، والإيمان به فكرة حلت بالنفس البشرية وغدتها، وحركتها وجعلتها تستجيب لكل مطالبها، وهي التي طغت على كل من آمنوا بها.

فقد غير الدين الإسلامي من أخلاق العرب وطباعهم، فقد كانوا يقتربون السيئات بمختلف أنواعها من وأد للبنات، ولعب للميسر، وشرب للخمر، والظلم والنهب، وعرفوا بالفرقة والشتات والتناحر والحروب التي تأتي على الأخضر واليابس، ثم أصبح المسلمون أمة واحدة ملتزمين بتعاليم الدين الجديد الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق، فترى فيهم أرقى أنواع الإيثار والكرم والشجاعة والسماحة، وصلة الرحم، ودفع الظلم وعدم التعدي على الحرمات وغيرها من مكارم الأخلاق¹.

فكرة التوحيد الخالص لله تعالى هي التي دفعت بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى تحمل الصعاب والمشاق، فقد أُوذِيَ في مكة وقوطع في شعابها ورُمي بالحجارة في الطائف حتى دميت قدماه الشريقتان، وعُرِضت عليه المغريات بمختلف أنواعها، كالسيادة والمال والزواج من أحسن النساء وأجملهن، لكنه رفض ذلك ابتغاء ما عند الله تعالى.

وقد عانى معه صلى الله عليه وسلم المسلمون الأوائل في مكة وتحملوا أقسى أنواع العذاب في رمضاء مكة ولهيبها، وإهراق أموالهم وممتلكاتهم دفاعاً عن

¹ - صالح أبراهيم بن عبد اللطيف الصنيع، التدين علاج الجريمة، مكتبة الرشد- الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع، ط2، 1419هـ. ص32.

العقيدة الصحيحة، كما وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في الغزوات المختلفة، وضرِبوا في الأرض طلباً للعلم والمعرفة ونشراً للقيم الإسلامية السامية إعلَاءً لسانها، وامتثالاً لما جاءت به من تعاليم وأوامر.

ولأجل أن تؤدي الفكرة دورها يقتضي أن يكون الإيمان كاملاً متكاملًا بكل ما حدده الله تعالى في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ لَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلَّوْا أَوْ تَعَرَّضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾¹، فإذا آمن الفرد ببعض هذه الأركان وترك البعض الآخر، أو آمن بها بجلها وترك واحداً فقط، كان إيمانه ناقصاً باطلاً ولا يعتد به وخسر خسراناً مبيناً في الدارين الدنيا والآخرة.

إن للإيمان بالله تعالى دور في ضبط القيم وعدم طغيان بعضها على بعض، فقد جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق ويضبطها ويقومها ويضبط السلوك الإنساني، وضبط معنى الحياة وحقيقتها، التي تقوم على أساس المحبة والتعاون وحب الخير للجميع، كما في الحديث عن أبي حمزة أنس ابن مالك رضي الله تعالى عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"².

كما أن الإيمان بالله تعالى يُعلي من شأن العقل ويحدد وظيفته في الحياة، فيجعله أداة للنظر والتأمل في سنن الكون ومظاهر الطبيعة، فلا يغتر العقل بنفسه

¹ - سورة النساء، الآية: 135.

² - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري، صحيح البخاري، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، م. 1. ص 17.

لأنه ليس غاية لذاتها، وإنما هو أداة للتطور والارتقاء، وفي نفس الوقت هو معرض للخطأ والصواب، وهو الدافع للعلم ونفع الخلق، وكونه وسيلة للارتقاء بالإنسان الذي فُطر قابلاً للتعلم، فلا يجوز اتخاذ العقل أداة للشر وإيذاء الناس.

كما يدعو الإيمان إلى التفكير في كل ما يحيط بالإنسان وما فوقه وما في باطن الأرض، بغية معرفة المخلوقات الكثيرة التي خلقها الله سبحانه من نبات وحيوان وجماد وماء وهواء وغيرها من المخلوقات.

يهدف الإيمان إلى تحقيق إنسانية الإنسان ووضعه في مكانته التي وُضعت له بتحريره من قيود الارتداء في أحضان الهوى والشهوات، أو الانقياد إلى قوة أرضية أو مخلوق أو جماد أو نجم أو وثن، إضافة إلى تربية النفوس على المبادئ الإنسانية، وجعل الإنسان حراً من كل أنواع العبودية لغير الله تعالى، ومحباً لله ورسوله¹.

ولعظم هذا العامل وأهميته في بناء الحضارات الحقة وحياة الإنسان الدنيوية والأخروية لم يغفر الله جل وعلا ذنب الشرك، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا الكتاب ءامنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا²﴾.

ويوضح صاحب تفسير المنار الحكمة من عدم مغفرة ذنب الشرك قائلاً: "أما الحكمة في عدم مغفرة الشرك فهي أن الدين إنما شرع لتزكو نفوس الناس وتطهير أرواحهم وترقية عقولهم، والشرك هو منتهى ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم

¹ - حسن رمضان فحلة، مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، دار الهدى، عين ميلة، الجزائر، ط1، 1410هـ- 1989م. ص56-72.

² - سورة النساء، الآية: 47.

ونفوسهم ومنه تتولد جميع الرذائل والخسائس التي تقسد البشر في أفرادهم وجمعياتهم لأنه عبارة عن رفعهم لأفراد منهم أو لبعض المخلوقات التي دونهم أو مثلهم إلى مرتبة يقدسونها ويخضعون لها، ويدلون بدافع الشعور بأنها ذات سلطة عليا فوق سنن الكون، وإن إرضاءها وطاعتها هو عين طاعة الله تعالى أو شعبة منها لذاتها، فهذه الخلقة الدنيئة هي التي كانت سبباً استبداد رؤساء الدين والدنيا بالأقوام والأمم واستعبادهم إياهم، وتصرفهم في أنفسهم وأموالهم ومصالحهم ومنافعهم تصرف السيد المالك القاهر بالعبد الذليل الحقيير، وناهيك بما كان لذلك من الأخلاق السافلة والرذائل الفاشية من الذل والمهانة، والدناءة والتملق، والكذب والنفاق وغير ذلك¹.

إن التحقق بكل عناصر الإيمان له أثر بالغ في حياة الفرد والمجتمع، فالإيمان بالملائكة يحقق للفرد الاتصاف بصفاتها والتحلي بمكارم الأخلاق، ويدفعه إلى عمل الصالحات وتجنب الآثام والشُرور، والإيمان بالرسول يشكّل الدافع إلى التحلي بالأمانة والصدق والوفاء، وتحقيق السعادة والتمسك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل.

أما اليوم الآخر والإيمان به فمن شأنه الدفع إلى إقامة الأعمال على هدى من الله عز وجل، والتزود بالزاد النافع والمؤونة المفيدة، والانقياد للأوامر والنواهي².

1. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم - المعروف بتفسير المنار، دار المنار، القاهرة، ج5، ط2، 1366هـ- 1947م. ص148-149.

2- حسن رمضان فحلة، مقومات الحضارة الإنسانية ومقوماتها في الإسلام. ص 74-89.

التوحيد له أهمية كبرى وعظيمة في حياة الفرد والمجتمع، فهو المورث للطمأنينة في القلب والثبات في الحركة، وتحقيق الأمن النفسي وغنى النفس وإن قلّ المال، مما يكسب القناعة.

كما يساهم في تحلية الإنسان بالصبر على الشدائد والمحن والمصائب والابتلاءات في الحياة، مقتفياً أثر الرسل والأنبياء، فلا يجزع ولا يتحطم، لعلمه أنها من عند الله تعالى، نزلت بقدر منه إما لرفع الدرجات أو لتكفير السيئات، قال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والانسف والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾¹.

إضافة إلى ذلك فهو الذي يجعل من السلوك الإنساني سلوكاً قوياً، ملؤه الأخلاق الفاضلة وذلك بالانصياع لأوامر الله عز وجل فتتساب حركته دون اعوجاج، فلا ينساق إلى المنكرات مادام قلبه مملوءً بالإيمان وهو ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم وبيّنه بعدم تعاطي الخمر أو اتیان الزنى، أو مد اليد للسرقة والقلب مملوء بالله تعالى والخوف منه وتعظيمه.

للإيمان الدور في بناء مجتمع متين تجمعه عقيدة واحدة، لا فرق بين أفرادها كلهم سواسية، بغض النظر عن اللون والجنس واللغة، متحد القوة المادية والمعنوية، قادر على إقامة العدل وفرض الحق، باحث عن المنافع دون إلحاق الضرر بالآخرين، وهذا لا يتأتى إلا بالانصياع لأوامر الله عز وجل وتوحيده، مما يجعل المجتمع كالجسد الواحد يحس بعضه ببعض، يتألم أفراداه لألم أحدهم

¹ - سورة البقرة، الآية: 155 - 157.

ويفرحون لفرحه، يقوم كل واحد بواجباته من غير نقص أو تقصير ولا تعدُّ على الآخرين، مجتمع بعيد عن الأمراض القلبية كالتباغض والتحاسد.

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"¹.

وأما انعدامه في المجتمع فهو مدعاة للانحراف والولاء لغير الله تعالى. عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"².

كما يجعل الإيمان الصحيح الكون يعيش في تناسق وتناغم، فقد اقتضت الإرادة الإلهية أن يكون الإنسان حاملاً للأمانة الإلهية، وكل ما في الكون مسبح بحمده تعالى، ولذلك وجب أن يكون هناك توافق بين المخلوقات جميعاً لأن كل ما في الكون خادم للإنسان، وعلى الإنسان أن يكون موحداً عاملاً شاكراً، حافظاً لما أنيط به، مستفيداً من خيرات الأرض غير مفسد فيها، آخذاً بالقسط المسموح به لتحقيق دوره في هذا الكون، وتأدية رسالته على أكمل وجه، وإلا فإنه سيلقى مصير مدينة سبأ التي فتح الله عليها من نعمه لكنها تنكرت له فحلَّ بها أمر الله تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم

¹ - أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، م08، ج16، ط01، 1421هـ_2000م. ص94.

² - أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، م08، ج16. ص115.

وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجزى إلا الكفور¹.

وهذا الإيمان يقوم على أسس أهمها:

- تحقيق الاستخلاف الذي هو تنفيذ مراد الله تعالى في تعمير الأرض.
- تزكية الإنسان: وذلك بالرقى به في سلم الإنسانية بما خصه الله تعالى به من روح، وصيانتته من التدرج في دركات الحيوانية بما خلق عليه من مادة اشترك فيها مع الحيوان.²

الإيمان هو الداعم الرئيسي لصلاح الإنسان الذي نيط به التكليف وبناء الأسرة والمجتمع ومن ثم بناء العالم، وهو الذي حُمِلَ الأمانة الكبرى التي أبت حملها السماوات والأرض والجبال، والمجتمعات لا تصلح إلا بصلاحه، ولا يصلح الأفراد إلا بصلاح الأنفس، ولا تصلح هذه الأخيرة إلا بالتزكية، والتزكية أعمق من التعليم، إذ التعليم يتصل بالرأس بينما التزكية تتصل بالنفس، وهي بمعنى الطهر والنمو، أو تخلية من الرذائل وتحلية بالفضائل والكمال التي بُعث بها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وهو ما يجعل الإنسان يبتغي ما عند الله ويستعلي عن متاع الدنيا وزينتها، ليقينه أن ما عند الله خير وأبقى.³

فما المانع للإنسان وهو في قلب الصحراء بعيد عن كل الأنظار ويجد أمامه مغريات كثيرة ويتعفف ويمتنع من الاقتراب منها ولا يمد يده إليها؟ أو أنه في وسط

¹ - سورة سبأ، الآية: 15- 17.

² - عبد المجيد النجار، معالم المنهج الحضاري في الإسلام، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد 25، 1431هـ- 2010م. ص 151.

³ - يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي الإسلامي، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، ط3، 1419هـ- 1998م. ص 91.

ملء بالشهوات ويمتتع عن تلبية رغباته الإنسانية؟ ومن الذي يدفع الإنسان لأداء واجباته الدينية المفروضة عليه وهو بعيد عن كل رقيب؟ بل ما الدافع إلى ترك ملذات الحياة ومغرياتها خاصة إذا تهيأت الأسباب وكانت الفرص سامحة؟
 المانع والدافع في كل هذا هو الإيمان بالله تعالى الذي خالط ولامس وتمكن من قلب هذا الإنسان، فأصبح يتعفف عن إتيان الشهوات، ويتعالى عن ملذات الدنيا إلا ما أباح له الشرع، فلا يتعدى ولا يظلم ولا يسطو، ولا يأكل بغير حق.
 هذه هي الفكرة الدينية في الإسلام وتأثيرها على الفرد المسلم في سلوكياته وتعاملاته وعباداته، وهي التي دفعت المسلمين الأوائل والمتأخرين إلى العمل وبذل الجهد وتحمل الصعاب ابتغاء ما عند الله تعالى.

وفي المقابل إذا خلا القلب من هذه الفكرة وغُذي بغيرها فإنه عرضة لكل المهالك في ذاته وبالتالي هلاك المجتمع، وذلك لأن التوحيد عامل بناء وتوحيد للمجتمع، وأما الشرك فهو مدعاة للتفرقة وانتشار سوء الاخلاق والرذائل بمختلف أنواعها، ويعموم هذه الرذائل والمنكرات في المجتمع يكون حلول أمر الله واجب، فقد اقتضت حكمته تعالى إهلاك كل من أعرض عن شريعته ومنهجه، وكل من مُكِّن في الأرض وهو مُعرض عنه تعالى فإن هذا استدراج وليس توفيق.

المبحث الثالث: الفكرة الدينية والقصص القرآني

من أهم ما اصطبغت به حياة الأنبياء بين أقوامهم هو الجانب الديني الذي يدور في أساسه حول عقيدة التوحيد وعبادة الله تعالى، العقيدة التي جاء بها كل الأنبياء والمرسلين، من أبينا آدم -عليه السلام- إلى خاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيئين من

بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وعائنا داود زبورا ¹.

إن تعاقب الأنبياء عبر العصور والأزمنة وفي مختلف الأمصار، كان بمثابة حلقات تكون عقداً واحداً، توحدت وشرحت أصول العقيدة الصحيحة والخلق والمعاملة، شرحاً فياضاً بالصدق عامراً بالأخلاص، وذلك راجع لاعترافها من نفس المعين، ووحدة الهدف المنشود وهو عبادة الله تعالى حق عبادته، وقد ورد ذلك على لسان مختلف الأنبياء وكأنهم اجتمعوا في محفل واحد خاطبين في مستمعهم، منادين بكلمة واحدة بصوت واحد أن اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً².

فيقول الله تعالى بيانا لدعوة نوح -عليه السلام- لقومه:  والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون

³، وعن هود -عليه السلام-:  فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ⁴، وغيرها من الآيات الأخرى المؤكدة والمبينة لذلك على لسان العديد من الأنبياء.

ولقد أكدّ القرآن الكريم على هذه الفكرة ودورها في بناء المجتمعات والأمم، وهذا ما نراه من خلال القصص القرآني الذي يقص علينا أحداثاً وقعت لأقوام قضوا، ليس للتسلية وإنما لأخذ العبرة والافتداء بهم من حياتهم مع أنبيائهم، وتبيان المناهج التي اتبعتها هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم، وذلك لأنه لم يكن إرسال الرسل

¹ - سورة النساء، الآية: 163.

² - محمد الغزالي، نظرات في القرآن، نهضة مصر للنشر والتوزيع، ط6، يوليو 2005، ص95.

³ - سورة الأعراف، الآية: 58.

⁴ - سورة الأعراف، الآية: 64.

والأنبياء بهدف الدعوة الدينية فقط، وإنما كان بهدف تأسيس حضارة، وبناء حياة اجتماعية أفضل للبشرية جمعاء، حضارة تضمن للإنسان إنسانيته وكرامته وحرية، وذلك باتباع أوامر الله تعالى والمنهج الذي وضعه للخلق، المنظم للعلاقات بين المخلوقات جميعاً بمختلف أنواعها، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان القائمة على الإيمان الصحيح والعلم والمساواة، البعيدة عن كل أنواع المنكرات والردائل التي تحط من قيمة الإنسان الأساس في بناء الحضارة والمجتمع.

كما أن القصة القرآنية تحتوي على جملة من السنن الكونية في قيام الأمم وفنائها، وتوضح لنا سنة الله في خلقه القاضية بإهلاك كل من كفر وعصى وبغى وخرج عن طاعة الله وأوامره، فيقول تعالى بيانا لذلك: ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت -أمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾¹.

ولنا عبرة في قصة قوم عاد الذين بلغوا ما بلغوا من التقدم والرقي في المجال الحضاري إلا أنهم وقفوا في وجه نبيهم هود -عليه السلام- ورفضوا الإيمان والانصياع لأوامر الله تعالى ودعوته، وفي فرعون الذي طغى وبغى وادعى الربوبية فحق عليه أمر الله تعالى في قوله: ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى، فأخذ الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾²، حلّ بهم ما حلّ لاستهزائهم واستهتارهم وتكبرهم على رسلهم ودعوتهم.

أما ثمود فقد حق عليهم أمر الله لمعارضتهم لنبيهم صالح -عليه السلام- وعقرهم للناقاة، بعدما أمدهم الله تعالى بالعديد من الخيرات والبسط في الأرض

¹ - سورة النحل، الآية: 112.

² - سورة النازعات، الآية: 24 - 26.

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتتحتون من الجبال بيوتا فاذكروا ءالاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾¹، فهي حضارة مُكَّن لها في الأرض إلا أنها افتقدت لأهم عنصر لضمان البقاء والاستمرار وهو الجانب الديني الروحي، حيث تكبرت عن توحيد الله تعالى فما كان إلا أن كان مصيرها مصير عاد ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾².

ويذكر الله تعالى مجملاً مصير كل من طغى وتجبر وكفر بقوله: ﴿فكلا أخذاً بذنبه فمنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾³.

تققها القصة القرآنية بمصير من اتبع سنة الله ودعوته وأنبيائه، واختار سبيله سبيلا ومنهجه منهجاً، ولنا عبرة في قصة داود وسليمان _عليهما السلام_، اللذين مكَّن الله لهما في الأرض وسخر لهما ما شاء من الإمكانيات وآتاهما الحكم والنبوءة، يقول جل وعلا فيما مدهما به: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد، أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملا صالحا إني بما تعملون بصير، ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا

¹ - سورة الأعراف، الآية: 74.

² - سورة الحاقة، الآية: 05.

³ - سورة العنكبوت، الآية: 40.

نذقه من عذاب السعير، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا ءال داود شكرا وقليل من عبادي الشكور¹.

أهم ما ميّز هذه الحضارة التي مكّن الله لها في الأرض وسخر لها من الخيرات ما لم يُسخر لغيرها من الأمم، توحيدها لله تعالى وارجاع كل الفضل إليه فيما هي فيه من الخير، واتخاذها لمنهج الله منهجاً، وسنته سنةً وطريقه طريقاً، فعملاً على شكره وحفظ ما كلفا به، ووظفاً ذلك في خير الإنسانية.

ويتجلى أثر الفكرة الدينية أكثر ودورها في بناء الفرد في قصة يوسف -عليه السلام- في مختلف مراحلها وأحداثها، فنجد ذلك في تصرفه مع صاحبي السجن، اللذين أرادا من يوسف تعبير رؤياهما، فبدأ لهما بما يؤسس لحياة الإنسان الحسنة، فدعاهما إلى الله تعالى بعدما منحهما الثقة به وبما سيقوله لهما من التأويل في قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ۖ ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۖ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ، يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

¹ - سورة سبأ . 10 - 13.

إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ ۖ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۖ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ¹

منحهما الأمان والاطمئنان إلى ما سيقوله لهما أولاً، ثم عرّفهما بما يجب أن يكونا عليه من المعتقد الصحيح، وعمل على إبطال تلك المعتقدات الفاسدة الموجودة في المجتمع المصري، وبين لهما أن هذه العقيدة متجذرة في عائلته من آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وصولاً إليه، العقيدة التي يجب أن يكون عليها كل أبناء الأمة بل الإنسانية.

ولذلك نجد يوسف _ عليه السلام _ يلفت انتباه السجين إلى أمر أهم من تعبير الرؤيا وجوهري أساس إدارة الحياة بكل تفاصيلها وجزئياتها، لفتها إلى العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد، عقيدة الأنبياء والرسل جميعاً، وأن ما يسمونه آلهة لا يستحق العبادة والألوهية، لأنها جمادات لا تستجيب ولا تسمع، ولا تنفع ولا تضر.²

ويظهر تأثير العقيدة في شخصية يوسف - عليه السلام - وذلك من خلال التربية التي ترباها، وما حلاه الله به من خلال حسنة واجب الاقتداء بها، فقد زينته الله تعالى بالثقة به رغم كل ما تعرض له من المحن والشدائد، بالرغم أنها كانت من أقرب الناس إليه من إخوته، فقد رُمي في البئر، وبيع عبداً في مصر، وأدخل السجن ظمأً وعدواناً، وقد كان الجزء من جنس العمل، وذلك لأن للثقة ثمار يجنيها العبد في الدنيا والآخرة، وقد مكن له في الأرض وحكم مصر.

¹ - سورة يوسف، الآية: 36-40.

² - محمد علي الصابوني، قيس من نور القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، المجلد الثاني، ج5، ط1، 2001م، ص154-155.

كما يظهر تأثير هذه العقيدة في تميُّز يوسف _ عليه السلام _ بالعفة خاصة لما تعرض لموقف الإغراء وقد تهيأت له كل الظروف والأسباب فقال بكل شجاعة ودون خوف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾¹. وقد انعكس تأثيرها كذلك في عفوه عن إخوته ومساحتهم رغم كل ما دبروه له من مكائد، وإبعاده عن والده لمدة طويلة، فقد قال لهم لما عرفوه من موقع القوة وقد كان بإمكانه إنزال أقسى العقوبات بهم انتقاماً جزاء فعلتهم بعد أن بيّن لهم المنهج الصحيح في الحياة مظهراً عفوه عنهم ﴿قَالُوا أَأَتَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ، قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَعْفُورُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾².

كما لنا عبرة في موقف سحرة فرعون لما جيء بهم لتحدي موسى _ عليه السلام _ وإبطال معجزته، سيما وأن فرعون قد وعدهم بتقريبهم منه، إلا أنه لما أدركوا أن ما جاء به موسى هو الحق، نسوا كل ما وعدهم به فرعون وانقلبوا رأساً على عقب من الشرك إلى التوحيد، على رغم كل محاولات فرعون لصددهم عن ذلك بشتى الطرق، إلا أنه الإيمان وما يفعله بالإنسان إذا سكن قلبه واستقر به، فقد رضوا بعذاب فرعون وتتكيله بدل العودة عن الدين الحق الذي أكسبهم الطمأنينة، وباعوا له الدنيا طمعاً في مغفرة الله ورضوانه³.

¹ - سورة يوسف، الآية: 22.

² - سورة يوسف، الآية: 90 - 92.

³ - صالح بن إبراهيم بن عبد اللطيف الصنيع، التدوين علاج الجريمة. 34.

إن أسلوب القرآن في إخباره عن الأمم الأولى، و عما وقع فيها، أسلوب يسوق عوامل الرفعة والهبوط، والبقاء والزوال، على أنها سنن كونية لا تختلف، طبقت على المتقدمين وتُطبق على المتأخرين، لأن الحقائق الاجتماعية التي تربط بين الأحياء كالحقائق المادية التي تربط بين عناصر الأرض والسماء¹.

إن القرآن الكريم يجعل من الإنسان إنساناً سوياً، ذلك الذي اختاره الله تعالى من بين جميع المخلوقات وفضلته عليها وحمّله الأمانة، واختاره خليفة له في هذه الأرض، يكون فيها هو السيد المطاع المكرّم، وما تجرأ أحد على إهانته إلا وطّرد من رحمة الله تعالى، وقد بيّن الله تعالى له طريق الخير بالمحافظة على فطرته التي فطره عليها، ولن يكون ذلك إلا إذا التزم الإنسان بما جاء به القرآن الكريم، وأن الحصن الحصين للإنسان والمانع له من المهالك والزيغ والضلال هو التدين الصحيح الذي هو "إقامة حصانات وضوابط لبقاء النفس على طبيعتها النقية وفطرتها الأصلية"²، وهو ما يهدف إليه الدين في حياة الإنسان.

خاتمة:

إذا كان المفكرون والمنظرون للحضارة أكدوا على أن أساس الحضارة فكرة دينية لما لها من أهمية في بناء نسيج المجتمع، فإن القرآن يؤكد هذه الفكرة ودعا إليها منذ أقدم العصور؛ بإرسال الأنبياء والرسل بلسان أقوامهم ودين واحد وعقيدة واحدة، بل وجعل من الفكرة الدينية ركناً أساسياً في بناء المجتمعات، ودونها لا معنى للمجتمعات، سيكون مآلها الهلاك والأفول.

إن الفكرة الدينية في القرآن هي أساس المجتمعات السوية، فهي الدافع إلى التأمل في ملكوت الله تعالى واستجلاء غوامضه والغوص في أسراره، وهي الدافعة

¹ - محمد الغزالي، نظرات في القرآن. ص 101.

² - المرجع نفسه. ص 51.

للبحث والعلم والتدبر، والعاصم للمجتمع من الرذائل والمنكرات في حال غياب الرقيب، فالإنسان في كنفها موقن بأنه مراقب من الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وما كان قص أخبار الأولين إلا لأخذ العبرة والعظة منهم، لأن الدين عند الله واحد، ولأن مصدر التوجيهات الدينية واحد، وإذا اختلفت المصادر اختلفت الأهداف واختلف المصير، وبالتالي اختلف وتفرق المجتمع، ثم لن تقوم قائمة له قائمة على الدرب الإنساني.

المصادر والمراجع: / القرآن الكريم.

1. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 01، 1421هـ _ 2000م.
2. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري، صحيح البخاري، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.
3. جمال الدين بن منظور ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.
4. حسن رمضان فحلة، مقومات الحضارة الإنسانية في الإسلام، دار الهدى، عين ميلة، الجزائر، ط1، 1410هـ - 1989م.
5. صالح أبراهيم بن عبد اللطيف الصنيع، التدين علاج الجريمة، مكتبة الرشد- الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع، ط02، 1419هـ.
6. سليمان الخطيب، أسس ومفهوم الحضارة في الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر.
7. قاسم حبيب جابر، الإسلام بين البداوة والحضارة. دراسة حضارة الإسلام والانسانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1423 _ 2003.
8. عباس عباس، الموسوعة الحضارية_العصر الحجري، الحضارة المصرية الفرعونية، الحضارة السومارية، الأكاديميون، البابليون، دار البدر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.

9. عبد اللطيف بن سعيد الغامدي، حقوق الإنسان في الإسلام، مركز الدراسات والبحوث، الرياض، ط1، 1421هـ_2000م.
10. مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر، سورية- دمشق، 1406هـ-1986م.
11. محمد الغزالي، نظرات في القرآن، نهضة مصر للنشر والتوزيع، ط6، يوليو 2005.
12. محمد علي الصابوني، قيس من نور القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، ط1، 2001م.
13. محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم_المعروف بتفسير المنار_، دار المنار، القاهرة، ط2، 1366هـ-1947م.
14. محمود شاكر، موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتاريخ الأمم، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط01، 2003.
15. مصطفى حسبية، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط 01، 2009.
16. مهات درويش، الفكر الديني في مصر القديمة، مكتبة الألكندرية.
17. ول ديورانت، ملخص قصة الحضارة، مؤسسة الرسالة، ط01، 1423هـ_2002م.
18. يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي الإسلامي، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، ط3، 1419هـ-1998م.

المذكرات:

- هدى بوفضة، دور الدين في بناء الحضارة في فلسفة أرنولد توينبي - المسيحية أنموذجاً، رسالة مقدمة لنيل شهادة مذكرة الماجستير في الفلسفة، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، 2007-2008م.

المجلات:

- عبد المجيد النجار، معالم المنهج الحضاري في الإسلام، مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد 25، 1431هـ-2010م.